تقديم

علمانية المدفع والدولار والإنجيل!

كانت العلمانية الغربية، التى عزلت السماء عن الأرض، وأحلّت «العقل والعلم والفلسفة» ـ أى منظومة التنوير الغربى ـ محل «الله والكنيسة واللاهوت»، وجعلت من الحداثة «دينًا طبيعيًا» أحلّته محل «الدين الإلهى». . كانت ـ هذه العلمانية ـ بمثابة «الكأس المسموم» الذى تجرعته المسيحية الغربية، فترنحت. وأصابها الإعياء والعجز والتهميش.

وبشهادة أحد الخبراء الألمان، عالم الاجتماع والنفس «جوتفرايد كونزلن»:

«فلقد مثلت العلمانية: تراجع السلطة المسيحية. . وضياع أهميتها الدينية. . وتحول معتقدات المسيحية إلى مفاهيم دنيوية. . والفصل النهائى بين المعتقدات الدينية والحقوق المدنية. . وسيادة مبدأ: دين بلا سياسة، وسياسة بلا دين. .

لقد نبعت العلمانية من التنوير الغربى. . وجاءت ثمرة لصراع العقل مع الدين، وانتصاره عليه، باعتباره مجرد أثر لحقبة من حقب التاريخ البشرى، يتلاشى باطراد فى مسار التطور الإنسانى.

ومن نتائج العلمانية: فقدان المسيحية لأهميتها فقدانا كاملا. . وزوال أهمية الدين كسلطة عامة لإضفاء الشرعية على القانون والنظام والسياسة والتربية والتعليم. . بل وزوال أهميته أيضا كقوة موجهة فيما يتعلق بأسلوب الحياة الخاص للسواد الأعظم من الناس، وللحياة بشكل عام. . فسلطة الدولة، وليست الحقيقة، هى التى تصنع القانون. . وهى التى تمنح الحرية الدينية. .

ولقد قدمت العلمانية الحداثة باعتبارها دينا حل محل الدين المسيحى، يفهم الوجود بقوى دنيوية، هى العقل والعلم. .

لكن . . وبعد تلاشى المسيحية . . سرعان ما عجزت العلمانية عن الإجابة على أسئلة الإنسان، التى كان الدين يقدم لها الإجابات . . فالقناعات العقلية أصبحت مفتقرة إلى اليقين . . وغدت الحداثة العلمانية غير واثقة من نفسها، بل وتفكك أنساقها العقلية والعلمية عدمية ما بعد الحداثة . . فد خلت الثقافة العلمانية فى أزمة بعد أن أدخلت الدين المسيحى فى أزمة . . فالإنهاك الذى أصاب المسيحية أعقبه إعياء أصاب كل العصر العلمانى الحديث . . وتحققت نبوءة «نيتشة» [١٨٤٤ ـ ١٩٠٠م]: عن «إفراز التطور الثقافى الغربى لأناس يفقدون نجمهم الذى فوقهم، ويحيون حياة تافهة، ذات بعد واحد، لا يعرف الواحد منهم شيئا خارج نطاقه» . . وبعبارة «ماكس فيبر» [١٨٦٤ ـ ١٩٢٠م]: «لقد أصبح هناك أخصائيون لا روح لهم، وعلماء لا قلوب لهم»! . .

ولأن الاهتمام الإنسانى بالدين لم يتلاش، بل تزايد . . وفى ظل انحسار المسيحية، انفتح باب أوروبا لضروب من الروحانيات وخليط من العقائد الدينية لا علاقة لها بالمسيحية ولا بالكنيسة . . من التنجيم . . إلى عبادة القوى الخفية . . والخارقة . . والاعتقاد بالأشباح . . وطقوس الهنود الحمر . . وروحانيات الديانات الآسيوية . . والإسلام، الذى أخذ يحقق نجاحًا متزايدًا فى المجتمعات الغربية . .

لقد أزالت العلمانية السيادة الثقافية للمسيحية عن أوروبا . . ثم عجزت عن تحقيق سيادة دينها العلمانى على الإنسان الأوروبى، عندما أصبح معبدها العلمى عتيقًا! . . ففقد الناس «النجم» الذى كانوا به يهتدون: وعد الخلاص المسيحى . . ثم وعد الخلاص العلمانى . . !»[1].

تلك شهادة خبير غربى ـ فى الدين والاجتماع معًا ـ على تجرع المسيحية الغربية لكأس العلمانية المسموم، الذى أصابها بالهزال والإعياء والتهميش . . فكان الفراغ الروحى الذى سقطت فيه الشعوب الأوروبية . . وخاصة بعد إفلاس الحداثة ودينها الطبيعى . .

* وعلى أرض الواقع، وبالحقائق والأرقام:

(١) جوتفريد كونزلن: [مأزق المسيحية والعلمانية فى أوروبا] ص١٧، ١٨. تقديم وتعليق: د. محمد عمارة. طبعة دار نهضة مصر ـ القاهرة سنة ١٩٩٩م.

ـ فإن الذين يؤمنون ـ فى أوروبا ـ بوجود إله ـ مجرد وجود إله ـ لا يتعدون ١٤٪ من الأوروبيين! . .

ـ والذين يواظبون على حضور القداس بالكنيسة ـ مرة فى الأسبوع ـ فى فرنسا ـ بنت الكاثوليكية، وأكبر بلادها ـ أقل من ٥٪ من السكان ـ أى أقل من ثلاثة ملايين فرنسى ـ أى أقل من نصف عدد المسلمين فى فرنسا! . .

ـ وفى ألمانيا، توقف القداس فى ١٠٠ كنيسة من أصل ٣٥٠ كنيسة فى أبرشية «أيسن» بسبب قلة الزوار! الأمر الذى زاد من الكنائس المعروضة للبيع، والتحول إلى أغراض أخرى ـ من مثل: المطاعم والملاهى . . وحتى المساجد ـ . . بينما ارتفع عدد المساجد ـ فى ألمانيا ـ من ١٤١ إلى ١٨٧ فى عامى ٢٠٠٥م و٢٠٠٦م وحدهما! . . وبلغت نسبة المواليد المسلمين ١٠٪ من جملة المواليد فى السنوات العشر الأخيرة! . .

ـ وفى انجلترا، صنفت أكثر من ١,٦٠٠ كنيسة ـ أى ١٠٪ من الكنائس الانجليزية ـ رسميًا باعتبارها زائدة عن الحاجة، ومعروضة للبيع . . فى الوقت الذى يتحدثون فيه عن أن عدد المسلمين الانجليز الملتزمين دينيًا سيتفوق ـ فى العقود القادمة ـ على نظرائهم الانجليكانيين! . . ومع أن نسبة المسلمين فى انجلترا هى ٣٪ من السكان، فإن المواليد الذين أطلق عليهم اسم «محمد» ـ ٢٠٠٦م ـ يأتون فى المرتبة الثانية بعد اسم «جاك»![1].

ـ وفى إيطاليا، غنت «مادونا» فى إحدى الكنائس التاريخية، بعد تحويلها إلى مطعم وملهى، وبعد تحويل «المذبح» إلى فرن للبيتزا! . .

ـ وفى جمهورية التشيك، لا يذهب للقداس سوى ٣٪ بين السكان . . وتباع الكنائس التاريخية، لتتحول إلى مطاعم وملاه . . ومعروض للبيع منها ١,٠٠٠ كنيسة، أى نصف عدد الكنائس فى جمهورية التشيك! . .

---

(١) صحيفة [الحياة] ـ لندن ـ فى ٨ ـ ٥ ـ ٢٠٠٧م. و[نيوزويك] ـ الأمريكية ـ فى ٢٧ ـ ٢ ـ ٢٠٠٧م. ومجلة [فوكوس] ـ الألمانية ـ نقلاً عن صحيفة [المدينة] ـ السعودية ـ ملحق [الرسالة] فى ٢١ ـ ٩ ـ ٢٠٠٧م.

ـ وفى ٢٠٠٧م أسلم ١١٤,٠٠٠ فى فرنسا وهولندا وألمانيا والجزء الشمالى من بلجيكا والنمسا[١].

* وهذا الواقع البائس الذى صنعته العلمانية بالمسيحية الأوروبية، هو الذى جعل بابا الفاتيكان «بنديكتوس السادس عشر» يعلن فى كتابه: [بلا جذور، الغرب، النسبية المسيحية، الإسلام] سنة ٢٠٠٦م ـ عن مخاوفه الثلاثة:

١ ـ انقراض الأوروبيين المسيحيين ـ وخاصة الألمان والإيطاليين والإسبان ـ بسبب تحلل الأسرة، وعدم الإنجاب، وزيادة نسبة الوفيات عن نسبة المواليد..

٢ ـ وحلول الهجرات المسلمة ـ العربية والإفريقية ـ محل المسيحيين الأوروبيين المنقرضين!..

٣ ـ وأن تصبح أوروبا «جزءا من دار الإسلام» فى القرن الواحد والعشرين![٢].

هكذا صنعت العلمانية بالمسيحية فى أوروبا..

* * *

● لكن مؤسسات الهيمنة الاستعمارية الغربية، التى طاردت الدين واللاهوت فى بلادها، وهمشت دور الكنيسة فى مجتمعاتها، قد ظلت وفيه.. للروح الصليبية فى مواجهتها مع الإسلام والمسلمين.. واستمرت فى استخدام الدين والكنيسة والتنصير سلاحا فى الزحف الإمبريالى على عالم الإسلام!..

فسلطاتها الاستعمارية تعمل على علمنة المسلمين، لكسر شوكة المقاومة الإسلامية للاستعمار الغربى، بتحويل الإسلام إلى روحانية فردية معزولة عن السياسة والاجتماع، مع فتح الأبواب والميادين للكنائس الغربية لتنصير المسلمين، وذلك لإتمام عملية التغريب والتبعية والإلحاق.. كى يتأبد النهب الاقتصادى والمسخ الحضارى ـ اللذين هما الهدف الأول للاستعمار...

---

(١) صحيفة [أويست فرانس] ـ الفرنسية ـ نقلاً عن صحيفة [الدعوة الإسلامية] ـ الليبية ـ فى ١ ـ ٨ ـ ٢٠٠٧م.

(٢) جوزيف راتزنجر ـ [بابا الفاتيكان بنديكتوس السادس عشر] ـ ومارسيليو بيرا: [بلا جذور، الغرب، النسبية، المسيحية والإسلام] طبعة نيويورك سنة ٢٠٠٦م. وانظر فى ذلك ـ أيضًا ـ صحيفة [الشرق الأوسط] ـ لندن ـ ملحق «منتدى الكتب» فى ٢٦ ـ ٤ ـ ٢٠٠٦م. و: د. محمد عمارة [الفاتيكان والإسلام] طبعة مكتبة الشروق الدولية ـ القاهرة سنة ٢٠٠٧م.

فبعد ما يقرب من أربعين عامًا على انتصار الثورة الفرنسية ـ ذات التوجه العلمانى المتوحش ـ والتى همشت النصرانية وكنيستها ـ نجد الروح الصليبية حية ومتوقدة وحاقدة فى مواجهة الإسلام وأمته وحضارته، عند احتلال فرنسا للجزائر سنة ١٨٣٠م..

ويحكى رفاعة الطهطاوى [١٢١٦ ـ ١٢٩٠هـ ١٨٠١ ـ ١٨٧٣م] ـ وكان شاهد عيان يومئذ بباريس ـ كيف **«أن المطران الفرنسى الكبير لما سمع بأخذ الجزائر ـ [أى احتلالها سنة ١٨٣٠م] ـ ودخل الملك «شارل العاشر» [١٧٥٧ ـ ١٨٣٦م] الكنيسة يشكر الله على ذلك ـ [!!] جاء إليه المطران ليهنئه على هذه النصرة، ومن جملة كلامه ـ ما معناه ـ: إنه يحمد الله على كون الملة المسيحية انتصرت نصرة عظيمة على الملة الإسلامية، ومازالت كذلك»!**[1].

فالروح الصليبية حاضرة وحاقدة فى مواجهة الإسلام وأمته وعالمه.. وهى توحد «الدولة» و «الكنيسة»، فى ظل العلمانية، كما كان الحال فى العصور الأوروبية الوسطى، عندما تكون المواجهة مع الإسلام!.

● وبعد قرن من الزمان على احتلال فرنسا للجزائر.. احتفلت فرنسا العلمانية بمرور قرن على احتلالها لهذا البلد المسلم سنة ١٩٣٠م.. ويومئذ لم تنس فرنسا الروح الصليبية المعادية للجزائر المسلمة، والحاقدة على إسلام الجزائريين.. فخطب أحد كبار الساسة الفرنسيين فى مهرجانات هذه الاحتفالات، فقال:

«إننا لن ننتصر على الجزائريين ما داموا يقرءون القرآن ويتكلمون العربية، فيجب أن نزيل القرآن من وجودهم، وأن نقتلع العربية من ألسنتهم»!.

وخطب سياسى آخر، فقال:

«لا تظنوا أن هذه المهرجانات من أجل بلوغنا مائة سنة فى هذا الوطن، فلقد قام الرومان قبلنا فيه ثلاثة قرون، ومع ذلك خرجوا منه. ألا فلتعلموا أن مغزى هذه المهرجانات هو تشييع جنازة الإسلام بهذه الديار»!!..

---

(١) رفاعة الطهطاوى [الأعمال الكاملة] جـ٢ ص٢٢٠. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة بيروت سنة ١٩٧٣م.

كما خطب أحد كرادلة الكنيسة الكاثوليكية الفرنسية ـ بهذه المهرجانات ـ فقال :

«إن عهد الهلال فى الجزائر قد غبر، وإن عهد الصليب قد بدأ، وإنه سيتمر إلى الأبد وإن علينا أن نجعل أرض الجزائر مهدًا لدولة مسيحية مضاءة أرجاؤها بنور مدينة منبع وحيها الإنجيل»!(١).

ولقد فطن المسلمون الجزائريون ـ فى تجربتهم مع الاستعمار الفرنسى ـ إلى **«أن موقف البورجوازية» الفرنسية هذا هو مدعاة للعجب، فإن هذه البورجوازية نفذت حكم الإعدام فى القسس، وأحرقت الكنائس، وحاولت محو الدين المسيحى فى فرنسا المسيحية.. أما فى الجزائر، فقد اتخذت مسلكًا مخالفًا، فحولت المساجد إلى كنائس، ومجدت المسيحية، واستخدمت أموال المسلمين لتنصيرهم! . وهكذا أحيت الروح الصليبية عندما رفعت علم المسيحية ضد الإسلام، فى الوقت الذى ظلت تسخر فيه من المسيحية والإسلام فى آن واحد..»!**(٢).

فالعلمانية الأوروبية تطارد المسيحية فى بلادها.. لكنها تستخدمها فى مطاردة الإسلام إبان الزحف الإمبريالى على بلاد المسلمين!..

● ولقد ظل هذا حال الاستعمار الغربى دائمًا وأبدًا.. ففى مجتمعاته الأوروبية يتبنى العلمانية التى تهمش المسيحية.. لكنه فى المستعمرات المسلمة يستخدم النصرانية الصليبية وكنائسها لإقامة القواعد الدينية ـ إلى جوار القواعد العسكرية ـ ولتنصير المسلمين، دعمًا للاحتلال، ولتأبيد النهب والتبعية والإلحاق.. صنع ذلك بواسطة إرساليات التبشير النصرانى ومدارسها وجامعاتها ومؤسساتها الثقافية ومنابرها الإعلامية ـ فى المشرق العربى ـ تلك التى أعلن القناصل الفرنسيون أن الهدف منها هو **«تكوين جيش متفان فى خدمة فرنسا فى كل وقت.. وجعل البربرية العربية ـ [كذا] ـ تنحنى لا إراديًا أمام الحضارة المسيحية لأوروبا»!**(٣).

---

(١) انظر دراستنا عن الشيخ محمد البشير الإبراهيمى ـ بكتابنا [من أعلام الإحياء الإسلامى] ص١٢٤، ١٢٥ طبعة مكتبة الشروق الدولية ـ القاهرة سنة ٢٠٠٦م.

(٢) د. محمود قاسم [الإمام عبدالحميد بن باديس] ص١٠ طبعة دار المعارف القاهرة ـ و: د. محمد عمارة [مسلمون ثوار] ص٤٧٠ طبعة دار الشروق ـ القاهرة سنة ٢٠٠٦م.

(٣) إرشيف وزارة الخارجية الفرنسية ـ سنوات ١٨٤٠ ـ ١٨٤٢ ـ ١٨٤٨ ـ ١٨٩٧ ـ ١٨٩٨ ـ انظر كتابنا [هل الإسلام هو الحل؟] ص٢٢ طبعة دار الشروق ـ القاهرة سنة ٢٠٠٧م.

● وعندما عقدت الكنائس الأمريكية مؤتمرها التنصيرى الشهير ـ مؤتمر كولورادو ـ فى مايو سنة ١٩٧٨م ـ أعلنت فيه الحرب الصليبية الجديدة على الإسلام، فقالت ـ فى وثائق هذا المؤتمر ـ:

«إن الإسلام هو الدين الوحيد الذى تناقض مصادره الأصلية أسس النصرانية.. والنظام الإسلامى هو أكثر النظم الدينية المتناسقة اجتماعيًا وسياسيًا.. ونحن بحاجة إلى مئات المراكز، لفهم الإسلام، ولاختراقه فى صدق ودهاء ـ[!!]ـ.. ولذلك، لا يوجد لدينا أمر أكثر أهمية وأولوية من موضوع تنصير المسلمين.. ولذلك، فعلى مديرى إرساليات أمريكا الشمالية والقادة المنصرين الآخرين أن يكتشفوا ويوطدوا أساليب جديدة للتعاون والمشاركة مع كنائس العالم الثالث وعملها المنظم للوصول إلى المسلمين. لقد وطدنا العزم على العمل بالاعتماد المتبادل مع كل النصارى والكنائس الموجودة فى العالم الإسلامى.. إن نصارى البروتستانت ـ فى الشرق الأوسط وإفريقيا وآسيا ـ منهمكون بصورة عميقة فى عملية تنصير المسلمين.. ويجب أن تخرج الكنائس القومية من عزلتها، وتقتحم بعزم جديد ثقافات ومجتمعات المسلمين الذين تسعى إلى تنصيرهم.. وعلى المواطنين النصارى فى البلدان الإسلامية وإرساليات التنصير الأجنبية العمل معًا، بروح تامة، من أجل الاعتماد المتبادل والتعاون المشترك لتنصير المسلمين.. إذ يجب أن يتم كسب المسلمين عن طريق منصرين مقبولين من داخل مجتمعاتهم.. ويفضل النصارى العرب فى عملية التنصير.. إن تنصير هذه البلاد سيتم من خلال النصارى المنتمين إلى الكنائس المحلية، ويتم ذلك بعد تكوين جالية محلية نصرانية قوية..»![1].

● وفى سبيل اختراق العالم الإسلامى، لتنفيذ هذا المخطط لتنصير المسلمين، نظّرت هذه الكنائس وقعّدت «للمكيافيلية ـ الصليبية»، عندما أعلنت عن «صنع الكوارث» لاستخدام المعونات والمساعدات لتنصير الفقراء والمحتاجين المسلمين!!.. فالاستعمار الغربى ـ وحكوماته العلمانية ـ ينهب ثروات المسلمين، ويحوّل جماهيرهم إلى فقراء ومعدمين.. وكنائس الدول الاستعمارية ـ تحت حماية المدافع الاستعمارية ـ تستخدم

---

(١) [التنصير: خطة لغزو العالم الإسلامى] ـ الترجمة العربية لوثائق مؤتمر كولورادو ـ ص٤٥٢، ٢٢، ٢٣، ٧٨٩، ٧٩٠، ٥٣، ٥٦، ٤، ٥، ٦٢٧، ٦٣٠، ٣٨٣، ٨٤٥. طبعة مركز دراسات العالم الإسلامى ـ مالطا سنة ١٩٩١م.

كسرة الخبز وجرعة الدواء لتحويل هؤلاء الفقراء المعدمين عن دين الإسلام إلى النصرانية الغربية . .

وهكذا تم ويتم التحالف ـ غير المقدس ـ بين «المدفع العلمانى» مع «إنجيل المنصرين»! . .

نعم . . نظّرت وقعّدت هذه الكنائس لهذه «المكيافيلية ـ الصليبية»، فقالت ـ فى وثائق مؤتمر كولورادوا»:

«لكى يكون هناك تحوّل إلى النصرانية، فلا بد من وجود أزمات ومشاكل وعوامل تدفع الناس ـ أفرادًا وجماعات ـ خارج حالة التوازن التى اعتادوها! . . وقد تأتى هذه الأمور على شكل عوامل طبيعية، كالفقر والمرض والكوارث والحروب، وقد تكون معنوية، كالتفرقة العنصرية، أو الوضع الاجتماعى المتدنى . . وفى غياب مثل هذه الأوضاع المهيئة فلن تكون هناك تحولات كبيرة إلى النصرانية! . . ولذلك، فإن تقديم العون لذوى الحاجة قد أصبح أمرًا مهمًا فى عملية التنصير!! . . وإن إحدى معجزات عصرنا، أن احتياجات كثير من المجتمعات الإسلامية قد بدلت موقف حكوماتها التى كانت تناهض العمل التنصيرى، فأصبحت أكثر تقبلاً للنصارى»!![1].

«فالمدفع» العلمانى الاستعمارى الغربى يجتاح مواطن الثروات فى عالم الإسلام، لنهبها . . وفى سبيل ذلك يصنع الكوارث التى تطحن الشعوب الإسلامية . . ثم يفتح الأبواب ـ تحت قهر المدافع ـ لإرساليات التنصير كى تقدم العون والمساعدة باسم يسوع المسيح، كى يبيع الفقراء والمعدمون إسلامهم لقاء كسرة خبز أو جرعة دواء!! . .

● ولقد وُضِع هذا المخطط . . وهذه «المكيافيلية ـ الصليبية» فى الممارسة والتطبيق . .

ـ فهذه الكنائس الأمريكية، التى تتحكم فى القوة الأمريكية ـ الفرعونية والقارونية ـ بواسطة «التحالف المسيحى» و «اليمين الدينى» و «المحافظين الجدد»، قد نصّرت ربع سكان كوريا الجنوبية . . أى أقامت فى تلك البلاد «قاعدة دينية نصرانية» إلى جوار «القواعد العسكرية الأمريكية» التى أقامتها فيها منذ سنة ١٩٤٥م . وجعلت من هذه «القاعدة النصرانية» ـ وهى «كنيسة صايمل»، التابعة لليمين الدينى الأمريكى ـ رأس

(١) المصدر السابق . ص ٢٤٢، ٨٢٦، ٨٢٧، ٤٦٩، ٣٦٤، ١٤٧ .

حربة فى تنصير العالم، والعالم الإسلامى على وجه الخصوص.. حتى أن عدد المنصرين الكوريين قد بلغ الرقم التالى للمنصرين الأمريكان على النطاق العالمى!!.. وبقيادة الامبريالية الأمريكية ـ المفترض أنها علمانية ـ تزامل عمل المنصرين الكوريين والجنود الكوريين مع عمل المنصرين الأمريكيين والجنود الأمريكيين حيثما وجد الغزو الأمريكى لبلاد المسلمين من العراق إلى أفغانستان.. وحتى فى مناطق النفوذ والهيمنة الأمريكية ولإيضاح هذه الحقيقة ـ التى يجهلها أو يتجاهلها الكثيرون ـ فإن هذا الفرع الكورى للكنائس الأمريكية ـ كنيسة صايمل Saemml Church ـ لم تقف عند التنصير للكوريين وتحويلهم عن ديانتهم البوذية والكونفوشية فحسب.. وإنما اشتغلت ـ مع الأمريكان ـ فى التنصير للعالم.. فأرسلت ١٦,٠٠٠ منصر كورى إلى الدول الآسيوية، وكان نصيب البلاد الإسلامية ٢٥٪ من هؤلاء المنصرين الكوريين!..

ولقد كان نصيب أفغانستان ملحوظًا فى هذا الجهد التنصيرى.. فالغزو «الأمريكى ـ الأطلنطى» لأفغانستان سنة ٢٠٠١م قد قضى على مقومات الأمن الغذائى والصحى للشعب الأفغانى، ولم ينعش فى تلك البلاد سوى زراعة المخدرات ـ التى تضاعفت مساحتها ثلاث مرات! ـ.. وفى ظل هذا الفقر المدقع ـ الذى صنعه «المدافع العلمانية» تمدد التنصير، الحامل «للإنجيل» مع كسرة الخبز وجرعة الدواء!.. وشهيرة تلك الأزمة التى تفجرت إعلاميًا فى ١٩ يوليو سنة ٢٠٠٧م، عندما أسرت «حركة طالبان» ٢٣ منصرًا كوريًا، كانوا يعملون على تنصير المسلمين فى أفغانستان ـ التى ليس فى شعبها نصرانى واحد! ـ ويجعلون ضحاياهم يغنون:

«إننى الآن أفهم حب يسوع. هالالويا. إننى الآن نظيف ـ [وكأن الإسلام هو القذارة!] ـ وقد أصبحت شخصا آخر. آمين»!

ولقد قامت حركة طالبان بإعدام أحد هؤلاء المنصرين ـ القس «باى هيونج كيو» Pastor Hyung Ku Bae فى ٢٦ يوليو سنة ٢٠٠٧م.. ثم أفرجت عن الباقين ـ الذين كان أغلبهم نساء ـ لقاء فدية.. وبعد تعهد الحكومة الكورية الجنوبية ـ فى ٢١ يوليو سنة ٢٠٠٧م ـ بمنع سفر المنصرين إلى أفغانستان، وبسحب جنودها من هناك مع نهاية سنة ٢٠٠٧م..

كذلك سبق للحكومة الأفغانية أن رحلت ألفًا من هؤلاء المنصرين الكوريين، المتدفقين على أفغانستان فى حماية المدافع الأمريكية الأطلنطية!..

ولقد امتد هذا النشاط الكورى ـ التنصيرى ـ إلى بلاد إسلامية كثيرة، منها الصومال والسودان وباكستان وتركيا والشيشان وداغستان.. ولقد قامت الحكومة الروسية بطرد المنصر الكورى «هنرى لى» من الشيشان وداغستان سنة ٢٠٠٣م..[١].

بل لقد أرسلت هذه الكنيسة الكورية ـ كنيسة صايمل ـ قرابة السبعين «متطوعًا» إلى مصر ـ بلد الأزهر الشريف! ـ وذلك للعمل فى عشر محافظات مصرية، تحت ستار العمل فى مجالات «التكوين المهنى والكهرباء والكمبيوتر والتمريض وتعليم اللغة الكورية» للمسلمين المصريين![٢].

ولقد امتد نشاط هؤلاء المنصرين الكوريين إلى العراق ـ فى ظل الاحتلال الأمريكى سنة ٢٠٠٣م ـ وإلى مواطن تجمعات اللاجئين العراقيين فى الأردن وغيرها ـ.. حتى لقد هاجم نشاطهم هذا بطريرك الكاثوليك فى العراق «إيمانويل ديلى» ـ فى ١٩ مايو سنة ٢٠٠٥م ـ قائلا: «إنهم أتوا لتحويل مسلمين فقراء عن دينهم باستخدام بريق المال والسيارات الفارهة»!.. وأشار إلى ما يحدثون ـ بنشاطهم التنصيرى ـ من «تدمير التواصل الاجتماعى والدينى بين مكونات الشعب العراقى»..

ولقد أسرت المقاومة العراقية عددًا من هؤلاء المنصرين الكوريين فى إبريل سنة ٢٠٠٤م، وتم الإفراج عنهم، بعد إعدام أحدهم ـ القس «كيم سون إيل» ـ فى يونيو سنة ٢٠٠٤م..[٣].

● أما الدور التنصيرى الأمريكى المباشر فى العراق، فحدث عنه ولا حرج!..

فعندما قادت أمريكا الحرب التى غزت بها العراق فى مارس سنة ٢٠٠٣م، رأينا نموذجًا صارخًا للحلف «الإمبريالى ـ الصليبى».. فهى حرب للسيطرة على ثلثى منابع الطاقه فى العالم، ليكون القرن الواحد والعشرون قرن الإمبريالية الأمريكية ـ وحدها دون شريك! ـ..

---

(١) د. محمد السيد سليم ـ صحيفة [الأهرام] ـ القاهرة ـ فى ٢، ١٠ ـ ٩ ـ ٢٠٠٧م.
(٢) المرجع السابق. فى ١٠ ـ ٩ ـ ٢٠٠٧م.
(٣) المرجع السابق. فى ٢ ـ ٩ ـ ٢٠٠٧م.

وفى سبيل ذلك وظفت هذه الإمبريالية الأمريكية مؤسسات الصليبية والتنصير لكسر شوكة الإسلام المجاهد ـ الذى أطلقت عليه أوصاف «الأصولية» و «الإرهاب» و«الأشرار» ـ ولقد نشرت مجلة «نيوزويك» ـ الأمريكية ـ إبان الحرب على العراق ـ عدد ١١ ـ ٣ ـ ٢٠٠٣م ـ أن الرئيس الأمريكى «بوش ـ الصغير» قد أقنع نفسه، وأعلن أن حربه على العراق **«هى حرب عادلة، وفق المفهوم المسيحى، كما شرحه القديس أغسطين [٣٥٤ ـ ٤٧٠م] فى القرن الرابع . . وكما فصّله كل من القديس توما الإكوينى [١٢٢٥ ـ ١٢٧٤م] ومارتن لوثر [١٤٨٣ ـ ١٥٤٦م] وآخرون! وأنه ـ أى بوش ـ قد «نبش كلمة «الأشرار» ـ التى أطلقها على العراق وأفغانستان وإيران ـ وكل قوى الممانعة الإسلامية ـ من سفر المزامير»! . . وأنه يبدأ عمله صباح كل يوم بالمطالعة ـ بناء على توصية القس «بيل جراهام» ـ فى كتاب القس «أوزوالد شامبرز» ـ الذى مات سنة ١٩١٧م. وهو يعظ الجنود البريطانيين والأستراليين بالزحف على القدس لانتزاعها من أيدى المسلمين!** ـ . .

كما نشرت المجلة ـ الأمريكية ـ فى ذات العدد ـ دعم «المؤتمر المعمدانى الجنوبى» وقساوسته السياسيين ـ من أمثال «ريتشارد لاند» و «فرانكلين جراهام» ـ لغزو العراق، ولتنصير المسلمين فيه! . . وبعبارة «نيوزويك»:

«فإن هؤلاء المبشرين الإنجليين لا يخفون رغبتهم فى تحويل المسلمين إلى المسيحية، حتى ـ لا بل لا سيما ـ فى بغداد»![1]

ولقد نشرت «نيويورك تايمز» ـ فى عددى ٥، ٦ ـ ٤ ـ ٢٠٠٣م ـ أى إبان الغزو للعراق ـ أن جيشًا من المنصرين الأمريكيين قد صحب الجيش الأمريكى الزاحف على العراق من الكويت . . وأن «من بين تلك الجماعات التبشيرية المصاحبة للجيش الأمريكى فى حربه على العراق مبشرين تابعين للكنيسة المعمدانية والكنيسة المنهجية . . حيث ذكر ممثلو الكنيسة المعمدانية أنه منذ بدأت الحرب الأمريكية على العراق تطوع نحو ٨٠٠ مبشر من خلال مجلسها التبشيرى لتقديم الدعم الروحى والمادى للشعب العراقى باسم يسوع المسيح! . . ومن بين هؤلاء المبشرين «فرانكلين جراهام» ـ الذى دشن حفل تنصيب

(١) [نيوزويك] فى ١١ ـ ٣ ـ ٢٠٠٣م.

«بوش» رئيسًا لأمريكا ـ والذى وصف الإسلام بالشر والعنف والإرهاب، وتطاول كثيراً على النبى وعلى الإسلام! . . ووالده «بيل جراهام» ـ الذى وصف نبى الإسلام بأنه إرهابى ووثنى! ـ . .

ولقد أعلن «فرانكلين جراهام» ـ وهو بالكويت، يهم بدخول العراق، فى ركاب الجيش الأمريكى ـ: «لقد جئت إلى هنا تمهيدًا لدخول العراق، فرغم أن نسبة المسلمين فى العراق تشكل ٩٧٪ من إجمالى تعداد السكان، إلا أننا يجب ألا ننسى أن المسيحية سبقت الإسلام فى دخول العراق! . . إننى هنا لدعم مسيحيى العراق! . . وعندما نقدم الدواء أو الطعام لغير المسيحيين فإننا لا نفعل ذلك باسمنا، ولكننا نفعل ذلك باسم ابن الرب!! . .

ولقد تحدثت «نيويورك تايمز» ـ عدد ٦ ـ ٤ ـ ٢٠٠٣م ـ عن العقيدة المسيحية الصهيونية الموجهة لأركان الإدارة الأمريكية ـ التى شنت الحرب على العراق ـ والتى أعلنت «الحملة الصليبية» ضد الإسلام فى ١٦ / ٩/ ٢٠٠١م ـ فقالت الصحيفة الأمريكية:

«إن السيد «كولن باول» يصف نفسه بأنه عاشق للطقوس الكنسية المسيحية الصهيونية. . والسيدة «كوندليزا رايس» كان والدها قسيسًا بإحدى كنائس المسيحية الصهيونية بولاية ألاباما. . و «ديك تشينى» يؤمن بنفس المنهج التبشيرى للرئيس جورج بوش، والقائم على فكرة أن الطريق إلى التبشيرية يبدأ بالمدفع والإنجيل! . . ونفس الأمر ينطبق على وزير الدفاع «دونالد رامسفيلد» . . فى حين تؤثر ديانة «بول وولفويتز» ـ اليهودية ـ على توجهاته السياسية . . مما دفع بعض المراقبين للقول:

إن السياسة الخارجية للإدارة الأمريكية الحالية تتم صياغتها والتعبير عنها طبقًا للمعتقدات التنصيرية، وتقسيم العالم إلى مؤمنين ووثنيين»!![1].

هكذا استخدمت ـ وتستخدم ـ العلمانية الغربية «المدفع والإنجيل» فى مواجهة الإسلام والمسلمين!.

* * *

(١) [نيويورك تايمز] فى ٥، ٦ ـ ٤ ـ ٢٠٠٣م. والنقل عن صحيفة [الأسبوع] ـ القاهرة ـ فى ١٤ ـ ٤ ـ ٢٠٠٣م.

إن الغرب، الذى زرع ـ ويزرع ـ العلمانية فى المجتمعات الإسلامية، بواسطة سلطات الاستعمار المباشر، وبواسطة المتغربين العلمانيين من أبناء جلدتنا الذين صنعهم على عينه فى بلادنا.. هو الذى أعلن الحرب على الإسلام، عندما جعله العدو و «الخطر الأخضر» الذى أحلّه محل «الخطر الشيوعى الأحمر» فور سقوط الشيوعية وأحزابها وحكوماتها أوائل ١٩٩١م.. لا لشىء إلا لاستعصاء الإسلام على العلمنة، ومن ثم استعصائه على التبعية والذوبان فى النموذج الحضارى الغربى، ورفضه ـ من ثم ـ الاستسلام للإمبريالية الغربية..

لقد أعلن هذا الغرب الإمبريالى الحرب على الإسلام وأمته وحضارته وعالمه كى يجرعه «كأس العلمانية المسموم»، الذى همش المسيحية الغربية وأصابها بالهزال والإعياء والإفلاس..

وعن هذه الحقيقة كتبت مجلة [شئون دولية] ـ الصادرة فى «كمبردج» بلندن ـ عدد يناير سنة ١٩٩١م ـ تقول:

«لقد شعر الكثيرون بالحاجة إلى اكتشاف تهديد يحل محل التهديد السوفيتى. وبالنسبة لهذا الغرض فإن الإسلام جاهز فى المتناول!..

إن أوروبيين كثيرين يتساءلون عما إذا كان من الممكن جعل الإسلام يقبل بقواعد المجتمع العلمانى مثلما فعلت المسيحية بعد صراعات كثيرة وطويلة ومؤلمة؟ أم أن رسوخ الإسلام فى المجال السياسى والإجتماعى يجعله يرفض القبول بالمبدأ المسيحى/ الغربى الذى يميز بين ما لله وما لقيصر، وبما لا يسمح لمعتنقيه أن يصبحوا مواطنين خاضعين للقانون بصورة يعول عليها فى ديمقراطية علمانية؟.

إن النظرية التى يعتنقها علماء الاجتماع، والتى تقول: إن المجتمع الصناعى والعلمى الحديث يقوض الإيمان الدينى، صالحة على العموم.. لقد تناقص التأثير السياسى والسيكلوجى للدين، عمليًا، فى كل المجتمعات، وبدرجات متفاوتة، وأشكال مختلفة.. لكن عالم الإسلام استثناء مدهش وتام جدًا من هذا!.. فلم تتم أى علمنة فى عالم الإسلام. إن سيطرة الإسلام على المؤمنين به هى سيطرة قوية، وهى بطريقة ما أقوى الآن عما كانت من مائة سنة مضت. إن الإسلام مقاوم للعلمنة

نوعًا ما، والأمر المدهش هو أن هذا يظل صحيحا فى ظل مجموعة مختلفة من النظم السياسية، فهو صحيح فى ظل نظم راديكالية (ثورية) اجتماعيًا، وهو صحيح أيضًا فى ظل النظم التقليدية، وهو صحيح بالنسبة إلى النظم التى تقف بين النوعين. .

إن وجود تقاليد محلية للإسلام. . قد مكن العالم الإسلامى من أن يفلت من المعضلة التى أرّقت مجتمعات أخرى أثار الغرب فيها الاضطراب والإذلال. . معضلة إضفاء الطابع المثالى على الغرب، ومحاكاته. . لقد امتلك الإسلام مقومات الإصلاح الذاتى، باسم الإيمان المحلى، وذلك هو التفسير الأساسى لمقاومة الإسلام المرموقة لاتجاه العلمنة.

إن الإسلام، من بين الثقافات الموجودة فى الجنوب، هو الهدف المباشر للحملة الغربية الجديدة، ليس لسبب سوى أنه الثقافة الوحيدة القادرة على توجيه تحد فعلى وحقيقى لمجتمعات يسودها مذهب اللاأدرية وفتور الهمة واللامبالاة، وهى آفات من شأنها أن تؤدى إلى هلاك تلك المجتمعات ماديًا، فضلاً عن هلاكها المعنوى. .»[1].

وعن ذات الحقيقة ـ حقيقة استعصاء الإسلام على العلمنة والتبعية للنموذج الغربى. . وعداء الغرب للإسلام بسبب هذه الممانعة الفريدة والأكيدة ـ يقول المفكر الاستراتيجى الأمريكى «فوكوياما»:

«إن الحداثة التى تمثلها أمريكا وغيرها من الديمقراطيات المتطورة، ستبقى القوة المسيطرة فى السياسة الدولية، والمؤسسات التى تجسد مبادئ الغرب الأساسية ستستمر فى الانتشار عبر العالم. . وهذه القيم والمؤسسات تلقى قبولا لدى الكثير من شعوب العالم غير الغربية، إن لم نقل جميعها. . ولكن السؤال هو:

ـ هل هناك ثقافات أو مناطق فى العالم ستقاوم، أو تثبت أنها منيعة على عملية التحديث ـ بهذا المعنى الأمريكى والغربى؟!»

ثم يجيب «فوكوياما» على هذا التساؤل الذى طرحه، فيقول:

---

(١) مجلة [شئون دولية] عدد يناير سنة ١٩٩١م ـ ملف عن «الإسلام والمسيحية» لعالم الاجتماع «إدوارد مورتيمر» و «الإسلام والماركسية» لعالم الاجتماع «إرنست جيلنر».

«إن الإسلام هو الحضارة الرئيسية الوحيدة فى العالم التى يمكن الجدال بأن لديها بعض المشاكل الأساسية مع الحداثة . . فالعالم الإسلامى يختلف عن غيره من الحضارات فى وجه واحد مهم، فهو وحده قد ولّد تكراراً خلال الأعوام الأخيرة حركات أصولية مهمة، ترفض لا السياسات الغربية فحسب، وإنما المبدأ الأكثر أساسية للحداثة: العلمانية نفسها . . وإنه بينما نجد شعوب آسيا وأمريكا اللاتينية ودول المعسكر الاشتراكى وأفريقيا الاستهلاكية الغربية مغرية، وتود تقليدها ـ لو أنها فقط استطاعت ذلك ـ فإن الأصوليين المسلمين يرون فى هذه الاستهلاكية دليلاً على الانحلال الغربى» . .

ويعترف «فوكوياما» أن هذا الاستعصاء الإسلامى على العلمنة، وهذه الممانعة الإسلامية للحداثة الاستهلاكية الغربية هى سبب الحرب التى يشنها الغرب على الإسلام ـ وليس السبب هو ما يسميه الغرب بالإرهاب! ـ فيقول:

«إن المسألة ليست ـ ببساطة ـ حربًا على الإرهاب، كما تظهر الحكومة الأمريكية بشكل مفهوم ـ [؟!] ـ وليست المسألة الحقيقية ـ كما يجادل الكثير من المسلمين ـ هى السياسة الخارجية الأمريكية فى فلسطين، أو نحو العراق. إن الصراع الأساسى الذى نواجهه، لسوء الحظ، أوسع بكثير، وهو مهم، ليس بالنسبة إلى مجموعة صغيرة من الإرهابيين، بل لمجموعة أكبر من الراديكاليين الإسلاميين، ومن المسلمين الذين يتجاوز انتماؤهم الدينى جميع القيم الأساسية الأخرى . . إن الصراع الحالى ليس ـ ببساطة ـ معركة ضد الإرهاب . . ولكنه صراع ضد العقيدة الإسلامية الأصولية التى تقف ضد الحداثة الغربية . . إنه يشكل تحديًا أيديولوجيًا هو، فى بعض جوانبه، أكثر أساسية من الخطر الذى شكلته الشيوعية.

وإن التطور الأهم ينبغى أن يأتى من داخل الإسلام نفسه، فعلى المجتمع الإسلامى أن يقرر فيما إذا كان يريد أن يصل إلى وضع سلمى مع الحداثة، وخاصة فيما يتعلق بالمبدأ الأساسى حول الدولة العلمانية . . أم لا ؟! . .»[1].

---

(١) [نيوزويك] ـ العدد السنوى: ديسمبر سنة ٢٠٠١م ـ فبراير سنة ٢٠٠٢م.

فهذه الحرب الصليبية الغربية المعلنة على الإسلام وأمته وحضارته ـ والتى تقودها أمريكا ـ ليس سببها ـ باعتراف «فوكوياما» ـ ما يسمى بالإرهاب . . وإنما السبب الحقيقى والأعمق هو استعصاء الإسلام على العلمنة . . ورفضه للحداثة الاستهلاكية الغربية ! . .

* * *

● وإذا كان هذا هو تاريخ الغرب العلمانى فى استخدام الصليبية سلاحًا فى مشروعه الإمبريالى ضد العالم الإسلامى ـ وهو تاريخ قديم قدم المشروع الإمبريالى الغربى ـ :

ـ الذى استخدم النصرانية الرومانية والبيزنطية لقهر النصرانية الشرقية ، لعدة قرون قبل ظهور الإسلام ، والفتوحات الإسلامية .

ـ والذى استخدم الحملات الصليبية مدة قرنين من الزمان [٤٨٩ ـ ٦٩٠هـ ١٠٩٦ ـ ١٢٩١م] لإعادة اختطاف الشرق من الإسلام . .

فإن هذه النزعة الدينية الصليبية قد انتعشت وتزايدت فى اللغة الغربية والسياسات الغربية والممارسات الغربية ولدى النظم الغربية ـ المفترض علمانيتها ! ـ فى العقود الأخيرة ، لأسباب عديدة منها الصحوة الإسلامية التى أعادت الإسلام ليكون «الفكرية ـ والأيديولوجية» التى يواجه بها المسلمون الإمبريالية الغربية ـ بعد سقوط الخيارات والنماذج التغريبية فى المجتمعات الإسلامية ـ . .

وعن هذه الحقيقة الهامة ـ حقيقة تزايد اللغة الدينية والتأثير الدينى لدى المؤسسات السياسية الغربية ـ تقول مجلة [شئون دولية] :

«إنه من الواضح أن الدين أصبح يقتحم الشئون الدولية بصورة متزايدة ، أو بالأحرى يعيد إدخال نفسه فيها . . .

ويصعب أن تكون مصادفة أن الديمقراطيين المسيحيين فى كل بلد أوروبى موجودون على الدوام بين أشد أنصار الوحدة الأوروبية حماسًا ، أو أن القادة القوميين الثلاثة الذين أرسوا أسس الاتحاد الأوروبى الحالى ـ كونوراد أديناور [١٨٧٦ ـ ١٩٦١م] والسيد دى جاسبرى [١٨٨١ ـ ١٩٥٤م] وروبرت شومان [١٨٨٦ ـ ١٩٦٣م] ـ كانوا جميعهم من الديمقراطيين المسيحيين ، ومن الكاثوليك المخلصين . . . ـ

إن هناك انطباعًا قويًا بأن الإشارات إلى المسيحية ـ فى سياق دولى ـ قد تضاعفت فى وسائل الإعلام الغربية . . ولا شك أن السبب الرئيسى فى هذا هو التغييرات التى وقعت فى الاتحاد السوفييتى وأوروبا الشرقية . . ففى بعض بلدان أوروبا الشرقية لعبت الكنيسة دورًا مهمًا فى إحداث التغيير السياسى : بولندا بصورة واضحة ، وألمانيا الشرقية بصورة غير متوقعة ، بدرجة أكبر ، وكذلك تشيكوسلوفاكيا إلى حد ما .

وفى الاتحاد السوفييتى بدأ التغيير من أعلى ، وعلى يد المثقفين العلمانيين ، لكن دور المنشقين المسيحيين فى مقاومة النظام ، وتقدمهم لإدانته لم يكن بحال من الأحوال أمرًا تافهًا ، والأمر الذى كان مدهشًا حقًا هو السرعة التى اتجه بها المجتمع والدولة على حد سواء إلى الكنيسة فى بحث يائس عن شىء يملأ الفراغ الأخلاقى المروع الذى كشف عنه انهيار الأيديولوجية الشيوعية . .

وكان لهذه الأحداث تأثير مدهش على المواقف الغربية . . فبدلا من الكتلة السوفييتية . . اكتشفنا زملاء أوروبيين يشاركوننا ميراثنا الحضارى والدينى . .

وكان لا بد لأوروبا ـ التى اعتادت أن تعرّف نفسها من خلال تحديد الآخر ـ أن تبحث عن آخر جديد يحل محل الاتحاد السوفييتى والمعسكر الشرقى بعدما انهارت أيديولوجيته ، وكان هذا الآخر هو الإسلام . . إننا فى وقت يسود فيه انطباع قوى بتضاعف الإشارات إلى المسيحية فى السياق الدولى . . »

هكذا حللت المجلة الأكاديمية الرصينة هذا المتغير الهام . . متغير عودة العامل الدينى إلى السياسات الغربية من جديد . . وبصورة ملحوظة ومؤثرة ومتزايدة . . بعد أن «كان المجتمع الدولى للقرن العشرين تسوده الثقافة الغربية الحديثة ، وواحدة من سماتها العلمانية . . »[1] .

وخلاصة هذا التحليل هى :

١ ـ عودة العامل الدينى إلى الدخول والبروز والفعل والتأثير فى السياسات الغربية . .

---

(١) [شئون دولية] ـ مصدر سابق .

٢ ـ ودور المسيحية ـ والأحزاب المسيحية الديمقراطية ـ فى تأسيس الوحدة الأوروبية . .

٣ ـ ودور الكنائس الأوروبية فى إسقاط الشيوعية ، وإعادة أوروبا الشرقية إلى الحضارة الغربية : المسيحية/ اليهودية . .

٤ ـ وعودة الدين كى يصبح «معيارا» فى تعريف أوروبا «نفسها» إزاء «الآخر» . .

٥ ـ ودور هذا العامل والمعيار الدينى فى اختيار الغرب للإسلام عدوّا أحله محل العدو الشيوعى ! ! أى عودة النزعة الصليبية ـ من جديد ـ إلى السياسة الدولية ، وخاصة فى المواجهة الغربية مع الإسلام . .

ففى الحقبة الرومانية والبيزنطية تجلت الوحدة بين «القيصرية» و «الكنيسة» فى مواجهة الشرق ونصرانيته . .

وفى الحقبة الصليبية ـ بالعصور الوسطى الأوروبية ـ توحد «أمراء الإقطاع الأوروبيون» مع «الكنيسة» و «البورجوازية التجارية» ضد الإسلام والشرق الإسلامى . .

واليوم . . وعقب سقوط «الخطر الشيوعى الأحمر» ـ وتوحد الغرب فى إطار الحضارة المسيحية اليهودية ـ وإحلال الغرب الإمبريالى الإسلام وصحوته عدوّا وخطراً أخضر . . تعود الوحدة لمؤسسات الهيمنة الغربية فى المواجهة مع الإسلام . . وفى مقدمة هذه المؤسسات «المؤسسات السياسية» و «الكنائس الغربية» . .

● وفى ضوء هذا المتغير ـ الذى يجب أن يأخذ حقه فى الدرس والتحليل ـ نفهم الحديث عن وجوب جعل أوروبا «ناديًا مسيحيًا» مغلقًا فى وجه تركيا المسلمة ـ وهو موقف يعلنه السياسى الفرنسى «جيسكار ديستان» ـ واضع دستور الاتحاد الأوروبى ـ . . ونفهم موقف الفاتيكان الرافض لدخول تركيا إلى هذا «النادى المسيحى» ! . .

ونفهم ـ كذلك ـ تخلى العلمانية الفرنسية عن حيادها إزاء الأديان ، لتقف ـ فى مسألة الحجاب ـ ضد الشعائر الإسلامية على وجه الخصوص ! . .

ونفهم إعلان بابا الفاتيكان «بنديكتوس السادس عشر» عن مخاوفه الثلاثة :

١ ـ انقراض المسيحيين الأوروبيين ديموجرافيًا . .

٢ ـ وحلول الهجرات الإسلامية ـ العربية والإفريقية ـ محل المسيحيين الأوروبيين المنقرضين . .

٣ ـ وتحول أوروبا إلى «جزء من دار الإسلام فى القرن الواحد والعشرين»![١] .

ونفهم اتحاد المؤسسات الغربية، واجتماعها ـ سياسية ودينية ـ على التخويف من الإسلام . . فمع القوانين المقيدة لحريات المسلمين فى الغرب، والتى تقنن التمييز العنصرى ضدهم . . ومع حملات الإعلام والثقافة التى تشيع الكراهية ضد الإسلام والمسلمين ـ والتى تمارسها المؤسسات السياسية الغربية ـ تأتى تصريحات كبار الكرادلة المحرضة على الإسلام والمسلمين . .

ـ فالكاردينال الإيطالى «جاكوموبيفى» ـ أسقف بولونيا ـ يدعو إلى **«استئصال المسلمين من أوروبا»! . . فصورة أوروبا والغرب ـ بل والعالم ـ بنظره ـ لا يمكن أن تكون متعددة الديانات! . . ووفق عبارته: «فإما أن تتحول أوروبا إلى مسيحية فوراً، وإلا ستكون إسلامية مؤكداً»**![٢] .

ـ والكاردينال «بول بوبار» ـ مساعد بابا الفاتيكان، ومسئول المجلس الفاتيكانى للثقافة ـ يعلن: **«إن الإسلام يشكل تحدياً بالنسبة لأوروبا وللغرب عموماً»**![٣] .

ـ والمونسنيور «جوزيبى برناردينى» يقول ـ فى حضرة بابا الفاتيكان ـ: **«إن العالم الإسلامى سبق أن بدأ يبسط سيطرته بفضل دولارات النفط . وهو يبنى المساجد والمراكز الثقافية للمسلمين المهاجرين فى الدول المسيحية، بما فى ذلك روما عاصمة المسيحية . فكيف يمكننا ألا نرى فى ذلك برنامجاً واضحاً للتوسع، وفتحاً جديداً»**![٤] .

ـ والحكومات الغربية ـ التى كانت حارسة للحياد بين الأديان ـ غدت الحامية للتهجم على الإسلام ورموزه ومقدساته، تحت ستار «حرية التعبير»! . . وبعد أن كانت شديدة العداء ضد الأحزاب الفاشية الجديدة، رأيناها تفسح المجال للمظاهرات التى تقودها

---

(١) [بلا جذور، الغرب، النسبية، المسيحية والإسلام] ـ مصدر سابق.
(٢) صحيفة [العالم الإسلامى] ـ مكة ـ فى ٦ / ١٠ / ٢٠٠٠م.
(٣) صحيفة [الشرق الأوسط] ـ لندن ـ فى ١ / ١٠ / ١٩٩٩م.
(٤) المرجع السابق. فى ١٣ / ١٠ / ١٩٩٩م.

هذه الأحزاب الفاشية ـ فى العديد من العواصم والمدن الأوروبية ـ فى سبتمبر سنة ٢٠٠٧م ـ ضد ما يسمونه «خطر أسلمة أوروبا»!!..

هكذا يتصاعد التحالف «العلمانى ـ الصليبى» الغربى ضد الإسلام والمسلمين.. وتتزايد ـ فى مواجهة الصحوة الإسلامية والصمود الإسلامى ـ «اللغة الدينية» فى المؤسسات الغربية ـ العلمانية والدينية جميعًا ـ.. وتسعى الإمبريالية الغربية ـ فى سبيل استعمارها الجديد لعالم الإسلام ـ إلى استخدام «المدفع.. والإنجيل» لكسر شوكة الإسلام والصحوة الإسلامية التى سرت وتسرى روحها بين جماهير المسلمين.

ويجد المسلمون أنفسهم اليوم ـ كما وجدوها على امتداد تاريخهم الطويل ـ أمام السنة الإلهية التى لا تبديل لها ولا تحويل:

﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧].

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: ٨].

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦ ـ ٣٧]..

صدق الله العظيم

* * *

بهذه الصفحات ـ المليئة بالحقائق والوثائق ـ نقدم ـ تقديمًا جديداً ـ لهذا الكتاب **[الإسلام والسياسة: الرد على شبهات العلمانيين]**

سائلين المولى ـ سبحانه وتعالى ـ أن ينفع بهذه الطبعة كما نفع بطبعاته السابقة.. إنه خير مسئول.. وأكرم مجيب

رمضان ١٤٢٨هـ

أكتوبر ٢٠٠٧م **د. محمد عمارة**

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بقلم فضيلة الإمام الأكبر الشيخ:

جاد الحق على جاد الحق

(شيخ الأزهر الراحل ـ رحمه الله)

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله . . وبعد:

فإن جدلا كثيراً يدور فى بلادنا العربية والإسلامية، وبصوت عال حول «العَلْمَانية» وحول موقف الإسلام والمسلمين منها . . بل إن الكثيرين يتساءلون عن ماهية هذه العلمانية؟ ويريدون أن يعرفوا ـ بعد فهم ماهيتها ـ هل لها مكان طبيعى فى عالم الإسلام وأوطان المسلمين؟

وكان هذا ـ وبصفة خاصة ـ بسبب تراجع بل وسقوط كثير من النظريات والمذاهب الوضعية، فى تدبير الدولة والعمران، والاجتماع الإنسانى، وما صحب هذا التراجع من بروز وتعاظم مكانة المنهاج الإسلامى فى سياسة الدول، وبناء الحضارة، وتنمية العمران، إذ غدت المقارنة بين المنهج الإسلامى، الذى يصبغ العمران بالصبغة الإلهية، ويضبط **الخلافة الإنسانية بالشريعة الإسلامية ـ غدت المقارنة ـ بين واقع المنهج الإسلامى، وبين العلمانية، التى تعزل الدين عن كل شئون العمران ـ فى المعارف . . والتطبيق . . والسلوك ـ واحدة من أبرز القضايا، التى يدور حولها الجدل، فى وطن العروبة وعالم الإسلام . .**

وإذا كان لابد من كلمات فى التقديم لهذا الكتاب، الذى يطرق مبحث (الإسلام والسياسة) والذى يرد على (شبهات العَلْمَانيين) . . وهو أحد الأعمال الفكرية،

للأستاذ الدكتور/ محمد عمارة ـ فإن من الأهمية بمكان ـ فى هذا التقديم ـ الإشارة إلى استظهار بعض الحقائق فى عدد من النقاط . .

● فالعلمانية مذهب من مذاهب الحضارة الغربية، الحديثة والمعاصرة، يدعو إلى عزل الدين عن أن يكون إطاراً وضابطًا فى النشاط الدنيوى للإنسان . . فيفك الارتباط، ويقصم العلاقة بين الشريعة الإلهية، وبين الدولة والسياسة، والاجتماع والاقتصاد والسلوك . . أى يعزل الدين عن الدنيا، وذلك باستثناء خصوصيات العقائد، والشعائر العبادية . .

● وهذه العلمانية قد نشأت فى الغرب، إبان نهضته الحديثة، كرد فعل لحكم الكنيسة وتحكمها، عندما حول هذا الحكم الكنسى شئون الدنيا إلى كهنوت دينى مقدس، الأمر الذى أدى إلى ثبات المتغيرات الدنيوية ـ الفكرية والعلمية ـ فدخلت المجتمعات الغربية ـ بسبب هذا الحكم الكهنوتى ـ فى عصور التخلف والجمود والظلام . . حتى جاءت العلمانية ـ كرد فعل ـ داعية إلى عزل الدين عن شئون الدنيا . . ومن هنا، وبسبب هذه الملابسات الخاصة لنشأة العَلْمَانية، كانت نسبتها ـ كمصدر غير قياسى ـ إلى «العالم» بمعنى «الدنيا» و «الواقع» فى مقابل «الدين» و «المقدس» . . وليس إلى «العلم» كما يحسب بعض الناس . . . فالمصدر القياسى لها هو (العالمانية) ـ من «العالم» بمعنى «الدنيا» و «الواقع» اللذين لا قداسة لهما ولا ثبات، ولا دين يحكم شئونهما فى نظر العَلْمَانيين . .

● وفى ضوء هذه الحقيقة . . حقيقة النشأة الغربية للعَلْمَانية، كثمَرة غربية لملابسات غربية، تأتى مشروعية التساؤل عن احتياجات المجتمعات الإسلامية لهذه العَلْمَانية . . ؟

إن النصرانية تقول: إنها رسالة روحية، وتحصر همها فى خلاص الروح، وفى مملكة السماء . . ولذلك كان تطلع كنيستها إلى شئون الدولة والعمران الدنيوى، تجاوزاً لمبدئها الداعى إلى أن تدع ما لقيصر لقيصر، وما لله لله . . فإذا جاءت العَلْمَانية لترد النصرانية إلى داخل الكنيسة، ولتحصرها فى إطار علاقة الفرد بالخالق، جاز لها ذلك، بل وكان موقفها هذا تصحيحًا للخطأ الذى تجاوزت به الكنيسة الغربية حدود نصرانيتها . .

وليس هكذا الحال مع الإسلام، والحضارة الإسلامية . .

فالإسلام منهاج شامل للدين والدنيا . . للعقيدة والشريعة، والحضارة والأخلاق . . للحياة الدنيا وللآخرة، التى هى خير وأبقى . . فالدعوة إلى إبعاد الإسلام ـ بالعَلْمَانية ـ عن سياسة الدولة وشئون العمران، هى قطع لإحدى ساقيه، وتعطيل لإحدى رئتيه، وكفران ببعض آيات كتابه، ينتقص من كمال واكتمال الإيمان بهذا الإسلام . . وإذا كانت العَلْمَانية، فى نشأتها الغربية، قد جاءت كرد فعل للتجاوز الكنسى، ولحكم الكهانة، وتحكم طبقة الكهان . . فإنها، بذلك، تكون (حلاً غربيًا) لـ «مشكلة غربية» وهذه المشكلة ـ الكهانة والكهنوت ووجود طبقة لرجال الدين، واحتكار هذه الطبقة لشئون الحكم ـ هى مشكلة لم تعرفها الحضارة الإسلامية ولا تاريخ المسلمين؛ لأن الإسلام يرفض ذلك كله من الأساس . .

ولذلك يبدو شذوذ الدعوة إلى العلمانية، فى الواقع الإسلامى، باعتبارها دعوة إلى «حل» ليست له «مشكلة» فى عالم الإسلام؟ . .

وحتى يموه العلمانيون على الناس شذوذ دعوتهم هذه، نجدهم يشوهون صورة الإسلام والتاريخ الإسلامى، حتى يصبح الإسلام مثل النصرانية، يدع ما لقيصر لقيصر، وما لله لله . . وحتى يصبح تاريخ الخلافة الإسلامية كهانة وكهنوتًا، وكأنهم بهذا التمويه ـ يفتعلون «مشكلة» ليفتعلوا لها «حلاً» . . وذلك بدلا من الاعتراف بتميز الإسلام عن غيره . . وتميز تاريخ المسلمين السياسى عن كهانة النصرانية وتاريخ الغرب، وحكم كنيسته، بما عرف لديهم «بالتفويض والحق الإلهى» .

● وأمام خطر هذه القضية . . وخطورة التمويه العلمانى . . تتأكد أهمية هذا الكتاب الذى نقدمه إلى المسلمين، ليزدادوا إيمانًا بشمول المنهاج الإسلامى لكل ميادين العمران البشرى . . عقيدة وشريعة، وحضارة وخلقًا . . بل وإلى العلمانيين ليئوبوا إلى عقيدة الإسلام وشريعته، إطارا حاكمًا وهاديًا فى كل شئون الحياة . .

فعندما تقدم صفحات هذا الكتاب الرؤية الإسلامية، لعلاقة الإسلام بالسياسة، ولمعنى «إسلامية الدولة» وعندما تتتبع بدايات ومراحل الاختراق العَلْمَانى للفكر العربى، فى ظل الغزوة الاستعمارية الغربية لبلادنا . . ولموقف تياراتنا الفكرية من هذا الاختراق العلمانى . .

ثم تفصل الحديث فى الرد على أبرز شبهات العلمانيين من مثل :

ـ الخشية من «التطبيق البشرى للشريعة الإلهية» . .

ـ والخشية من «الاستبداد باسم الدين» . .

ـ والخشية من الحكم الإسلامى على الوحدة الوطنية . . إلخ إلخ .

عندما تقدم صفحات هذا الكتاب الرؤية الإسلامية لهذه القضايا ـ وغيرها مما يتعلق بهذا الموضوع ـ فإنه يكون عملاً فكريًا ، جديراً بأن يسهم فى ترشيد الحياة الفكرية ، فى العالم الإسلامى ، وتبيان صفحة من صفحات أصالتنا الإسلامية . . تزيد المؤمنين بالمنهاج الإسلامى إيمانًا . . وتقدم للذين لا يعلمون . . بل وللضالين عن هداية هذا المنهاج ، النور الذى يضىء لهم سبيل العودة إلى أحضان الإسلام ، وإلى جماعة المسلمين . .

والله من وراء القصد . . نسأله ، سبحانه وتعالى ، أن ينفع بهذا الكتاب . . وبكاتبه . . إنه سميع مجيب الدعاء . . وصلى الله وسلم على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه ، ومن اهتدى بهدى الإسلام إلى يوم الدين . .

٢٨ من ذى الحجة ١٤١٢هـ — **شيخ الأزهر**

٢٩ من يونيه ١٩٩٢م — **جاد الحق على جاد الحق**

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة طيبة

الإسلام: دين ودولة.. وكما كان النبى ﷺ حامل الرسالة الإسلامية، فلقد كان مؤسس الدولة الإسلامية أيضًا.

والمدنية الإسلامية: هى ميراث حلال لكل أبناء الشرق، من المسلمين والكتابيين، وتاريخهم مشترك، والكل تضافروا على إيجاد هذه المدنية.

وهناك رأى يقول:

إن على مصر أن تنظر إلى المدنيات الغربية، فتختار من كل أحسنه. وأكبر ضعف فى هذا الرأى، أنه ينسى أن مصر لها مدنية أصيلة، وحاجتها الآن هى: جعل هذه المدنية ملائمة للعصر الحاضر. وليست مصر هى الدولة الطفيلية الحديثة التى ترقع لها ثوبًا من فضلات الأقمشة التى يلقيها الخياطون؟!..

د. عبدالرزاق السنهورى باشا

«أبو القانون المدنى الحديث»

تمهيد

عن الإسلام والسياسة

ليس هناك خلاف فى فكرنا ـ القديم منه والحديث ـ على تعريف «**الإسلام**» . . فهو الخضوع والانقياد لله ـ سبحانه وتعالى ـ وفق ما جاء به وأخبر عنه الرسول ﷺ من الشرائع والأحكام[1] . .

أما «**السياسة**» ، فإن فى مضمون مصطلحها خلافًا :

فقبل الاحتكاك الفكرى بين حضارتنا الإسلامية والحضارة الغربية بعد الغزوة الاستعمارية الغربية الحديثة لديار الإسلام ، وعندما كانت المضامين «**العربية ـ الإسلامية**» هى الوحيدة والسائدة والشائعة فى معاجمنا وقواميسنا وموسوعاتنا ، لم يكن هناك خلاف فى مضمون مصطلح «السياسة» ؛ لأن هذا المضمون الإسلامى كان تعبيرًا أمينًا عن صورة الإنسان كما صورها وتصورها الإسلام .

الإنسان : الخليفة عن الله ـ سبحانه وتعالى . . الحامل لأمانة عمران الحياة الدنيا كابتلاء وامتحان ومعيار للحياة الآخرة . . التى هى خير وأبقى . . فسياسته لعمران الدنيا ليست هى المقاصد والغايات ، وإنما هى السبل والوسائل للدار الآخرة . . وهو ، بحكم خلافته عن الله ، ليس سيد هذا الكون . . وإنما هو عبد لسيد هذا الكون ، وإن كان سيدًا فيه . . هو عبد لله وحده : وسيد لكل شىء بعده ! . . ومن ثم كانت حرية هذا «العبد ـ السيد» محكومة بشريعة خالقه ، التى هى بنود عقد وعهد الاستخلاف ، الأمر الذى جعل المضمون الإسلامى للسياسة فى العمران الإسلامى لا يقف عند المعايير

(١) انظر (التعريفات) للجرجانى . طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨م و [معجم ألفاظ القرآن الكريم] . وضع مجمع اللغة العربية ـ طبعة سنة ١٣٧٠هـ ١٩٧٠م .

المادية فى حدودها الدنيوية معزولة عن معايير الصلاح الأخروى . . وإنما ربط هذا المضمون الإسلامى لمصطلح السياسة بين المعايير الدنيوية والأخروية بعروة وثقى! . .

لقد عرّفت القواميس الإسلامية «السياسة» ـ انطلاقًا من هذه «الصورة الإسلامية» للإنسان، بأنها: «**هى استصلاح الخلق بإرشادهم إلى الطريق المنجى فى العاجل والآجل. وتدبير المعاش مع العموم على سنن العدل والاستقامة . .**»[1].

فهى ليست مطلق طلب الصلاح والمصلحة الدنيوية والعاجلة . . بل الصلاح والمصلحة التى تجعل نجاة الدنيا محققة للنجاة فى الآخرة . . وهى ليست مطلق تدبير المعاش وتنميته وفق المعايير الدنيوية وحدها. بل التدبير المحكوم بمعايير سنن العدل والاستقامة، التى وضعها الخالق لخليفته إطارًا وفلسفة حاكمة لسياسة العمران . .

ولما كان العمران البشرى فى الدنيا هو ميدان «السياسة»، وفيه من «المتغيرات» و«المستجدات» أكثر مما فيه من «الثوابت» . . جاءت نصوص الدين والشرع الإلهى متناهية، بينما لا تتناهى متغيرات العمران الدنيوى ومستجداته . . فكان أن وقفت النصوص الشرعية، فى سياسة العمران، عند الثوابت والكليات، والفلسفات، والقواعد، والمبادئ، والأطر الحاكمة، تاركة للعقل الإنسانى والاجتهاد البشرى حرية التفريع والبناء، والتفصيل والإبداع، فى إطار القواعد والمبادئ والأطر الحاكمة، تحقيقًا لإسلامية العمران المتجدد، بمد فروع إسلامية من الأصول والقواعد، لتظلل بالإسلام هذه المتغيرات والمستجدات . . **فتتواصل الصبغة الإسلامية للعمران، دونما جمود . . ودونما قطيعة مع الأصول.**

ولتحقيق هذه الخصيصة التى اقتضاها ختم الرسالات الإلهية برسالة سيدنا محمد ﷺ استقر الرأى فى الفكر السياسى الإسلامى على أن «**شرعية» السياسة لا تقف عند ما نص عليه الشرع، وإنما هى ـ «الشرعية» ـ متحققة فيما يبدع المسلمون من السياسات، طالما أنها لا تخالف ما شرعه الله . . «فالسياسة ما كان من الأفعال بحيث يكون الناس معه أقرب إلى الصلاح، وأبعد عن الفساد، وإن لم يشرعه الرسول ﷺ ولا نزل به وحى . . فهى لا تنحصر فيما نطق به الشرع، وإنما تشمل ما لم يخالف ما نطق به الشرع**. . والسياسة العادلة غير مخالفة للشريعة الكاملة، بل

(١) أبو البقاء [الكليات]: تحقيق: د. عدنان درويش. محمد المصرى. طبعة دمشق سنة ١٩٨٢م.

هى جزء من أجزائها وباب من أبوابها، وتسميتها سياسة أمر اصطلاحى، وإلا فإذا كانت عدلاً فهى من الشرع.

وتقسيم بعضهم الحكم إلى: شريعة، وسياسة، كتقسيم غيرهم الدين إلى: شريعة، وحقيقة، وكتقسيم آخرين الدين إلى: عقل ونقل. وكل ذلك باطل.

بل السياسة، والحقيقة، والطريقة، والعقل، كل ذلك ينقسم إلى قسمين: صحيح وفاسد، فالصحيح قسم من أقسام الشريعة، لا قسيم لها، والباطل ضدها ومنافيها.. ومن له ذوق فى الشريعة واطلاع على كمالها وتضمنها لغاية مصالح العباد فى المعاش والمعاد، ومجيئها بغاية العدل الذى يسع الخلائق، وأنه لا عدل فوق عدلها، ولا مصلحة فوق ما تضمنته من المصالح، تبين له أن السياسة العادلة جزء من أجزائها، وفرع من فروعها، وأن من أحاط علمًا بمقاصدها ووضعها موضعها، وحسن فهمه فيها، لم يحتج معها إلى سياسة غيرها ألبتة، **فإن السياسة نوعان: سياسة ظالمة، فالشريعة تحرمها، وسياسة عادلة، تخرج الحق من الظالم الفاجر، فهى من الشريعة، علمها من علمها، وجهلها من جهلها.. وهذا الأصل من أهم الأصول وأنفعها**[1].

هكذا، استقر فى الفكر الإسلامى الإخاء بين «إسلامية» مضمون مصطلح «السياسة» انطلاقًا من صورة الإنسان فى الإسلام ـ صورة الإنسان الخليفة عن الله ـ ومن كون سياسته للعمران البشرى هى الأمانة التى حملها والتكليف الإلهى الذى اختاره، كرسالة محكومة حريته فى أدائها بالشريعة الإلهية، التى هى بمثابة بنود عهد وعقد الوكالة والاستخلاف.. ولم تقف هذه «الإسلامية» لـ «السياسة» عند حدود ما نصت عليه النصوص المتناهية، بل امتدت ـ باستصحاب ضوابط النصوص وروحها وفلسفة قواعدها ـ امتدت، بالاجتهاد الإسلامى، إلى ما لم ترد به النصوص.

ذلك هو مضمون مصطلح «السياسة» فى فكر الإسلام: **«استصلاح الخلق بإرشادهم إلى الطريق المنجى فى العاجل والآجل.. والأفعال التى يكون الناس معها أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد. وتدبير المعاش على سنن العدل والاستقامة الإسلامية..»**.

---

(١) ابن القيم [إعلام الموقعين] جـ٤ ص٣٧٢، ٣٧٣، ٣٧٥ طبعة بيروت سنة ١٩٧٣م. و [الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية] ص١٧ ـ ١٩، ٥ تحقيق: د. جميل غازى، طبعة القاهرة سنة ١٩٧٧م.

وعلى هذا النحو ظلت السيادة لهذه المضامين فى معاجمنا وقواميسنا إلى أن جاء الاحتكاك الحضارى بين أمتنا وبين فكر الغرب وحضارته، فدخلت فى معاجمنا وقواميسنا المعربة المضامين الغربية المتميزة لمصطلح «السياسة» لتصب فى نفس الوعاء.. الأمر الذى أحدث ازدواجية فى المفهوم والمضمون، رغم وحدة المصطلح والوعاء.. وهى مشكلة تواجه العقل المسلم فى بحثه عن المضامين الإسلامية، المتميزة فى قواميس ومعاجم خلطت مضامين الغرب بمضامين الإسلام عندما عرفت الكثير من المصطلحات!..

فإذا كانت «السياسة»، فى العرف الإسلامى لا تقف عند استصلاح الخلق فى العاجلة ـ [الدنيا] وحدها؛ لأن صورة الإنسان فى الإسلام هى صورة الخليفة عن الله، والذى يعمر الدنيا كمعبر للآخرة، التى هى خير وأبقى.. **فإن «السياسة» فى الحضارة الغربية، ذات الطابع الوضعى، إنما تقف عند تدبير الإنسان لحياته الدنيا وحدها..** فهو فى عرف تلك الحضارة سيد هذا الكون، ومقاصد عمرانه لدنياه هى تعظيم اللذة فى هذه الحياة، وتنمية الوفرة المادية، وتكثير القوة، دونما رابط يربط ذلك بالدار الآخرة، أو ضابط دينى، ولا معيار شرعى يتخذه إطاراً حاكماً لهذه التدابير والسياسات.. فالواقع المحسوس هو المنطلق ـ والعقل والحواس هما سبل المعرفة. و ﴿**مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ**﴾ [الجاثية: ٢٤].. إنها سياسة دنيوية المحتوى والمقاصد، لا تتغيا شيئًا خارج العمران الدنيوى، ولا تحكمها أية معايير غير دنيوية، ولا دخل فيها لسنن الدين وفلسفته وضوابطه!.

ولهذه النظرية الدنيوية الخالصة للإنسان، ولسياسته للعمران البشرى، كانت علمانية الحضارة الغربية فصلاً للدين، لا عن «الدولة» وحدها ـ كسلطة تنفيذية ـ وإنما فصلا له واستبعادًا لمعاييره من كل شئون العمران البشرى، المعرفية، والاجتماعية، والتربوية، والاقتصادية، والأخلاقية، والفلسفية.. إلخ.. إلخ.. فإنسانها «دنيوى» ذو مقاصد «دنيوية» تحكم سياسته للعمران المعايير الدنيوية وحدها.

وعندما يكتب أستاذ مسيحى مُعَرِّفًا مصطلح «العلمانى» ـ Secu Lar ـ فيقول إنه «نسبة إلى العَلْم ـ [مصدر غير قياسى] بمعنى العَالَم، وهو خلاف الدينى أو الكهنوتى،

وهذه تفرقة مسيحية لا وجود لها فى الإسلام، وأساسها وجود سلطة روحية هى سلطة الكنيسة، وسلطة مدنية هى سلطة الولاة والأمراء. والعلمانيون يُحكِّمون، بوجه عام العقل، والمصلحة العامة دون تقيد بنصوص أو طقوس دينية. .»[1] . . فإنه يقدم شهادة ـ غير متهمة ـ على أن العلمانية الغربية ـ فضلا عن أنها خصيصة غربية ـ هى فصل للدين عن الدنيا. واستبعاد لمعاييره عن أن تكون حاكمة فى سياسة العمران. . كل العمران. .

ولذلك كان طبيعيًا فى حضارة علمانية أن تكون السياسة علمانية هى الأخرى، فهى تدبير «الإنسان ـ الدنيوى» لحياته «الدنيا»، وصولا إلى مقاصد «دنيوية» صرفة ـ ولقد صاغ مكيافيللى [١٤٦٩ ـ ١٥٢٧م] فى كتاب [الأمير] فلسفة السياسة فى الحضارة الغربية العلمانية، باعتبارها: «الممكن من الواقع» ـ دونما ضوابط أو معايير دينية لهذا الممكن من هذا الواقع. . وتحدثت القواميس عن هذه السياسة ـ Policy ـ فقالت: «**إنها أسلوب معين للعلم اختبر بطريقة مقصودة بعد استعراض كافة البدائل الممكنة**. .». . دونما إشارة إلى الصلاح الدينى الذى يربط سياسة الدنيا بمقاصد الآخرة. . ولذلك جاهرت التعريفات الغربية بأن «القوة» وعلاقتها، والصراع بين مالكيها هما محور هذه «السياسة». فالتعريفات الحديثة للسياسة ـ Politics ـ تذهب إلى أن محور السياسة: هو الصراع حول طبيعة الحياة الخيرة، وعلاقة مصالح الجماعة بها. أما العناصر التحليلية الرئيسية فهى: الصراع، والقوة. والفعل السياسى: هو الذى يحدث من خلال منظور القوة التى تمارس من خلال عملية الحكم وفى إطار الدولة. ودراسة السياسة: هى تحليل لعلاقات القوة. .»[2] . .

فالإنسان دنيوى فقط. . والحضارة دنيوية ـ علمانية ـ فقط. . ومن ثم فالسياسة فيها هى فن الممكن ـ الدنيوى ـ من الواقع ـ الدنيوى. . دونما علاقة بين هذه الدنيا وبين الآخرة، ولا علاقة بين تدبير المعاش وسياسة العمران، وبين الاستقامة الدينية.

ذلك هو جوهر ومنطلق الخلاف بين مضمون «السياسة» فى الحضارة الإسلامية، ومضمونها فى الحضارة الغربية. يبدأ الخلاف حول تصور كل حضارة لـ «الإنسان» ـ أخليفة هو عن الله، سبحانه وتعالى. فتكون دنياه معبراً إلى الآخرة، التى هى خير

(١) د. حنا رزق. انظر [معجم العلوم الاجتماعية] تصدير ومراجعة: د. إبراهيم مدكور. طبعة القاهرة سنة ١٩٧٥م.

(٢) [قاموس علم الاجتماع] تحرير ومراجعة: د. محمد عاطف غيث. طبعة القاهرة سنة ١٩٧٩م.

وأبقى، فيسوس عمران الدنيا بشريعة الدين، قيامًا بتكاليف عقد وعهد الاستخلاف. على النحو الذى يجعل هذه «السياسة»: «سياسة ـ شرعية». .؟؟ أم أن هذا الإنسان هو سيد هذا الكون، الذى تقف معارفه وعلومه عند ظاهر الحياة الدنيا. . والذى تتغيا سياسته للعمران تحقيق المقاصد الدنيوية ولا شيء وراءها. . حتى ليفصل الدين عن العمران كله، وليس فقط عن الدولة «كسلطة تنفيذية»؟؟.

هكذا وجدنا ونجد أنفسنا أمام مضمون واحد لمصطلح «الإسلام». وأمام مضمونين متميزين لمصطلح «السياسة» اختلطا فى المعاجم والقواميس، التى صبت المعانى الغربية المتميزة فى أوعية المصطلحات التى اتقفت فيها الحضارات!.

***

وإذا كنا نلح اليوم، ونحن نسعى إلى صفاء الرؤية الإسلامية، وإلى تحرير العقل المسلم من الغبش الذى ألحقه به عدم التمييز بين «أوعية» ـ مصطلحات ـ لا مشاحة فى وضعها واستخدامها، وبين «مضامين» تحمل خصوصيات حضارية متميزة بتميز الحضارات والثقافات. . إذا كنا نسعى إلى ذلك، فنحن لا نبتدع اختراعًا غير مسبوق. . فالعلامة ابن خلدون [٧٣٢ ـ ٨٠٨هـ ١٣٣٢ ـ ١٠٤٦م] عندما تحدث عن «الدولة» و «الملك» ـ الذى تشترك فيه كل ألوان الاجتماع البشرى ـ ميز بين «السياسات» التى تطبع وتصبغ الدول وسلطات المُلْك. . فتحدث عن تميز «السياسة الإسلامية» عن «السياسة الدنيوية». . فالأولى سياستها شرعية، تربط صلاح الدنيا بصلاح الآخرة، بينما لا تربط الثانية بين الصلاحين. . **فالسياسة الدنيوية هى التى تقف مرجعيتها عند العقل، كملكة للإنسان الدنيوى. . بينما تجعل السياسة الإسلامية من الشريعة إطارًا حاكمًا لحركة العقل المسلم، وصولا بالسياسة إلى تغيى سعادة الدنيا والآخرة كليهما**. . بل لقد ميز ابن خلدون بين هذين اللونين من ألوان «السياسة» وبين «سياسة القهر» والاستبداد، التى لا قانون لها، ولا مرجعية تحكمها إلا شهوة استبداد المستبدين!.

لقد تحدث ابن خلدون عن أنواع السياسات هذه، فقال: «. . وحقيقة الملك: أنه الاجتماع الضرورى للبشر. . ويجب أن يرجع فى ذلك إلى **قوانين سياسية** مفروضة يسلمها الكافة وينقادون إلى أحكامها. . . وإذا خلت الدولة من مثل هذه السياسة لم يستتب أمرها ولا يتم استيلاؤها، سنة الله فى الذين خلوا من قبل.

فإذا كانت هذه القوانين مفروضة من العقلاء وأكابر الدولة وبصرائها ـ كانت سياسة عقلية.

وإذا كانت مفروضة من الله، بشارع يقررها ويشرعها، كانت سياسة دينية نافعة فى الحياة الدنيا وفى الآخرة. وذلك أن الخلق ليس المقصود بهم دنياهم فقط، فإنها كلها عبث وباطل، إذ غايتها الموت والفناء والله يقول: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: ١١٥] والمقصود بهم إنما هو دينهم المفضى بهم إلى السعادة فى آخرتهم ﴿صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥٣].

فجاءت الشرائع بحملهم على ذلك فى جميع أحوالهم، من عبادة ومعاملة، حتى فى المُلْك، الذى هو طبيعى، للاجتماع الإنسانى، فأجرته على منهاج الدين، ليكون الكل محوطًا بنظر الشارع، فما كان منه بمقتضى القهر والتغلب وإهمال[1] القوة الغضبية فى مرعاها، فجور وعدوان ومذموم عنده، كما هو مقتضى الحكمة السياسية، وما كان منه بمقتضى السياسة وأحكامها، فمذموم أيضًا؛ لأنه نظر بغير نور الله ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]؛ لأن الشارع أعلم بمصالح الكافة فيما هو مغيب عنهم من أمور آخرتهم، وأعمال البشر كلها عائدة عليهم فى معادهم، من ملك أو غيره، قال ﷺ: «إنما هى أعمالكم ترد عليكم»[2].

وأحكام السياسة إنما تطلع على مصالح الدنيا فقط ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الروم: ٧]، ومقصود الشارع بالناس صلاح آخرتهم، فوجب بمقتضى الشرائع حمل الكافة على الأحكام الشرعية فى أحوال دنياهم وآخرتهم، وكان هذا الحكم لأهل الشريعة، وهم الأنبياء ومن قام فيه مقامهم وهم الخلفاء.

فقد تبين لك من ذلك معنى الخلافة:

* والملك الطبيعى: هو حمل الكافة على مقتضى الغرض والشهوة.

---

(١) أى إطلاق.

(٢) وفى صحيح مسلم: «إنما هى أعمالكم أحصيها لكم».

* والسياسى: هو حمل الكافة على مقتضى النظر العقلى فى جلب المصالح الدنيوية ودفع المضار.

* والخلافة: هى حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى فى مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة، فهى فى الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع فى حراسة الدين وسياسة الدنيا به..»[1].

فالسياسة.. كالملك.. والدولة.. مصطلحات عامة فى كل النظم والحضارات.. لا مشاحة فى وضعها ولا فى استعمالها.. لكن المضامين، فى هذه المصطلحات، تتمايز بتمايز النظم والحضارات..

فالسياسة الشرعية هى التى تتغيا بتدبير عمران الدنيا تحقيق سعادة الآخرة.. وإنسانها خليفة عن الله، يتعبده بسياسة العمران الدنيوى.. فهو عبد لله وحده، وسيد لكل شىء بعده!.

بينما السياسة الدنيوية ـ العلمانية ـ التى تقف بمرجعيتها عند عقلاء الدولة وأكابر بصرائها، فإنها تتغيا ـ بتعبير ابن خلدون أيضًا ـ «مصالح الدنيا فقط» ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

وهكذا تتميز مضامين «السياسة» بتميز صورة ومثال «الإنسان»:

أخليفة عن الله فى هذا الوجود؟؟.

أم السيد فى هذا الوجود؟؟!.

* * *

(١) [المقدمة] ص١٥٠، ١٥١. طبعة القاهرة سنة ١٣٢٢هـ.